بقلم : ثروت أباظة

تفضل يا سيدى بالجلوس . لا لن تجد منضدة خالية . ان المقهى الآن بالذات لا تخلو فيه منضدة . لعلك لا تعرف هذا المقهى يا سيدى ، انه مقهى الموسيقيين وافراد الكورس وهم الآن يتناولون غداءهم ليعودوا الى الاذاعة وهكذا تجدهم يزحمون المقهى . فى هذا الوقت بالذات يزحمون المقهى . ثم هم اذا فرغوا يجلسون هنا أيضا ليجدهم من يريدهم فى عمل ... لماذا تظل واقفا يا سيدى ... تفضل يا سيدى بالجلوس . لا . لاتندهش انى كلمتك دون سابق معرفة فانى كثيرا مارايتك ، وجهك مألوف بالنسبة لى . ثم انك ستسدى الى معروفا كبيرا اذا جلست فانى اريد أن أتكلم ... اريد أن أقول وكل هؤلاء سمعوا ما أريد أن أقوله ولكنى مع ذلك أريد أن أقوله مرة اخرى تفضل بالجلوس واعدك انك لن تشعر بالملل فحكايتى — على كل حال — لاتجلب الملل ... شكرا ... والآن هل تأمر بقهوة أم بكازوزة ... انا الذى سادفع فانه يسعدنى ان اجد من احكى له ... لا شك انك تريد عبد المنعم قاصد ... انت شاعر

وهو يلحن لك ... اليس كذلك ... نعم انا متأكد .. سيأتى عبد المنعم حالا .. كازوزه ؟ حسنا ... ياكوشه . ياكوشه . زجاجة كازوزة وحسابها عندى. وعجل ياكوشه اتريد أن تسمع الآن . أولا أحب أن اعرفك بنفسى . انا ياسيدى جزء على عشرة من انسان واحيانا انا جزء على عشرين من انسان واحيانا . ولكن قليلا ما أصبح جزءا على ثلاثين من انسان . وعلى كل حال أنا لست انسانا كاملا لم أكن كذلك فى يوم من الايام . تصور أننى حتى وأنا فى بطن أمى كنت نصف انسان . نعم ان لى أخا توأما شاركنى المكان الوحيد الذى كان يمكن ان اكون فيه انسانا كاملا ، واحدا صحيحا . وحين نزلنا الى الحياة ظللت أحس أننى لست انسانا كاملا . العجب أن هذا الشعور لم يكن يراود أخى أبدا كنت أسأله :

ـ اتحس انك انسان كامل

فكان يقول فى عظمه بلهاء

ـ كامل ونصف

يظهر أن الشعور بالكمال تسرب اليه جميعا ونحن فى بطن أمنا ولم يبق لى منه شىء .

وأكدت الحياة معنى هذا النقص فى نفسى ، لم أنفرد بشىء أبدا ، كنا اذا أكلنا تقاسمت أنا وأخى الطعام ، واذا ما اشترى ابى لى شيئا كان لابد ان يشترى نفس الشىء لأخى كنت أخشى أن ينسى يوما ويحضر لى فردة حذاء ولاخى فردة حذاء . وذهبنا الى المدرسة . وكان اخى ذكيا يحسن المذاكرة ويحسن الاجابة على المدرس ويحسن الاستماع ويحسن أن يجعلهم يقولون عنه انه تلميذ ممتاز . وكنت فى أولى عهدى بالمدرسة مثله . ولكن حين تقدمت بى السن والدراسة بعض الشىء نبتت فى رأسى فكرة لا أدرى مأتاها ... جميع الافكار تأتى من حيث لا ندرى ولكنها تؤثر فى حياتنا حتى نهاية الحياة ... مصاير الانسان يا سيدى مرتبطه بفكرة كهذه الفكرة التى نبتت فى راسى ونفذتها .. تصور ياسيدى مجردفكرة طيف من ظن ، لمحة من أوهام ، ظل من رأى ، مجرد

فكرة فاذا أنا الذى تراني اليوم واذا أخى - والعقبى لآمالك - مدير خطير يحرك بسبابته عشرات من الكيانات البشرية من أمثالى ... كانت فكرة ياسيدى ... لا .. لا أريد أن أكون مثل أخى أريد أن أكون.. أنا .. انا ... انا ... فقد بحثت عن انا هذه كثيرا وقررت -مادمت لم أجدها- أن أخلقها أنا... وخلقتها يا سيدى فاذا هى هذا المخلوق الشائه الزى تراه الآن امامك .. جزءامن عشرة منانسانأو جزءا منعشرين او جزءا من ثلاثين ... كانت فكرة مجرد فكرة ... كثيرا ما تطوف بأذهان أقوام لكنهم لم ينفذوها ، وانما انا ... أنا ... نفذتها ... قلت فى نفسى لن أكون صورة لاخى ... لا لن اكون ... ساكون انا منفردا فى كيانى لا امائل هذا الاخ فيما يسعى اليه من آمال ولا فيما يسير فيه من طريق ... لاكن شبيها له فى الخلقة ولكنى لن اكون شبيها له فى الامال والاحلام .. كنت قد مليت أن أكون نسخة كربون من أخى ... كانت فكرة .. لو تركتها تذوب مع الافكار الاخرى التى تراود عقلى ، لو أنى لم اتمسك ... لو .. بغيضة « لو » هذه ياسيدى الشاعر اليس كذلك ...اتعجبك « لو » هذه ياسيدى ... انها لفظ الحسرة على ما فات والالم على الماضى .. لفظة لا تحمل الا اليأس ... لعلك تحبها فى شعرك لا انها تعطيك الفرص للظهور بمظهر الحزين الاسى ... هذا المظهر الذى يحب الشعراء دائما أن يتخذوه ... اكره انا « لو » هذه ياسيدى ... لو كنت تركتها تذوب لكان شأنى غير شأنى ... المهم أنى نفذتها... اهملت المذاكرة وكنت أجاهد الا التفت فى الحصة واجاهد ان اجعلهم يقولون عنى تلميذ فاشل اتعرف ياسيدى أننى لم الاق النجاح الا نادرا فى حياتى ... اقول نادرا لاخادع نفسى ... الحقيقة اننى لم الاق النجاح الا فى هذه المرة ... نجحت يا سيدى فى ان اكون تميذا فاشلا ... نجحت فى ذلك نجاحا جعل أبى ينتهى الى اليأس الكامل منأن أكمل دراستى... وأخرجنى ...

كان يومى الاول مع الفراغ وزملائى فى المدرسة يوما عجيبا بالنسبة لى ياسيدى حتى لقد خطر لى أن

اعدل عن فكرتى واعود الى مدرستى ولكن هذه الفكرة ... فكرة العدول يا سيدى سرعان ما ذابت وتلاشت ورحلت الى حيث لاادرى ولايدرى احـد .. اتعرف اين تذهب الأفكار ياسيدى ... لامااظنك تعرف ، بل مااظن ان احـدا يعرف . قضيت اليوم وحيـدا ، ولكنى كنت فردا ... شعرت بالتوحد . لم اجـد نفسى بين صفوف التلاميذ ولا وجدت نفسى جزءا من جماعة ، بل وجدت نفسى فردا كاملا . ولكن لسبب لاادريه لم اشعر بهذه الانفرادية وانما شعرت بالضياع ... كم هو مر مذاق هذا الضياع ياسيدى حتى لقد اضاع على شعورى بالتفرد .

وكان لى زميل سبقنى الى الطريق فذهبت اليه فوجدته قد حقق آماله فى كمنجة يحملهـا وتخرج له انغاما . وكان سعيدا ، واصبحت فى ايام افلاسى وانا لاعمل لى الا ان استمع للموسيقى التى ترسلها كمنجة صديقى الذى سـبقنى الى الطريق ... لا لم اكن حينذاك اقدر النغمه الحلوه ولا النغمه الرديئه . وانا كنت استمع ... اتشرب فنجان قهوه ... يسعدنى ان اقدمه لك .. اتشربها مضبوطه ... ياكوشة فنجان قهوه مضبوطه .. لا .. لا تشكرنى ... فانه يسعدنى ان اقول ... خيل الى بعد حين اننى استطيع ان افهم النغمات ، ورحت اسـتحسن موسـيقى صديقى ، وشـيئا فشيئا واتتنى الجراة ان ادندن وما لبثت ان غنيت ... نعم كنت اغنى مع موسيقى صديقى وقال صديقى الله وحين سمعتها وجدت « انا » التى كنت ابحث عنها ... وجدت نفسى احس بالتفرد ياسيدى اصبحت اغنى واجد من يقول الله ...

وتمسكت بلفظة الاستحسان هذه واسترسلت. .. غنيت ، وكان صـديقى يدعو بعضـا ممن يعـرفهم ويعزف هو واغنى انا ... والعجيب ياسيدى انهم كانوا يقولون الله ... لاادرى اى دافع كان يبعثهم الى قولها ... اصبحت الآن لاادرى ... اما فى ذلك الحين فقـد كنت واثقا ان صوتى وخيم .. كنت واثقا ياسيدى.. ولاادرى كيف استطاع صديقى ان يدبر لنـا ليلة نغنى فيها فى فرح ... فـرح كامل يجلس فيـه المدعـوون

والعريس والعروس واغنى أنا ويعزف هو على كمنجة ويعزف آخر على عود وبوق ثالث على طبلة .. وأغنى ... وغنيت ياسيدى وقال الناس الله ... لا لم يكونوا ساخرين ... قالوا الله ولكن ماأقل ماقالوها ... ان هى الا دقيقة او اثنتين واذا بالكراسى تقذف الينا واذا الفرح يصبح ميدانا للمصارعة واذا نحن واهل المغنى والموسيقى نتلمس مخبأ نحتمى فيه ولكن كأنما كان المدعوون لا يريدون أن يضربوا أحدا الا العازفين .

نجونا بحياتنا ولكن لم ننج من الجروح والكدمات ضع القهوة هنا يا كوشه... هل الماء بارد... شكرا ياكوشه ... العجيب ياسيدى أن هذه الحادثة كانت تتكرر فى الافراح التى ندعى اليها بطريقة منتظمة لاتخطىء ... لم نكمل حفلا أبدا . يئست يا سيدى . وكفرت بالتفرد وكفرت بنفسى وكفرت بكل شىء الا السماء .. اتعرف ياسيدى أن فكرة الكفر بالسماء لم تخالجنى ابدا ... ان عقلى لايتصور أن السماء تتركنا ، كما لايتصور عقلى ان يكون هذا الكون البديع من غير خالق ولايتصور عقلى ان تكون هذه الدنيا هى نهاية القصة .. أنا مؤمن بالله وبالحياة الاخرى ، ولم أفقد ايمانى هذا فى أشد الاوقات حلكة وسوادا . مات أبى ياسيدى وأنا اقطع طريقى فى الفشل . وازدادت الدنيا سوادا امام عينى ولكنى لم أكفر بالله ... وفجأة قال صديقى صاحب الكمنجة انه تعرف على شخص يستطيع أن يجعلنى أغنى وحين سألته « ولايضربنى المستمعون » قال « ولايضربك المستمعون » قلت «كيف ؟» قال « ستغنى فى كورس » كورس !؟ وأعود شخصا غير كامل مرة اخرى ... طلبت اليه الا يذكر هذا العرض أمامى ... طلبت منه ذلك فى صلف وكبرياء .. ولكن قليلا مادام هذا الصلف وذلك الكبرياء ... كان أبى موظفا وكان يعولنى وهو حى ولكنه حين مات لم يترك لى شيئا الا خوفى أن أشعر بأننى انسان لايكتمل الا بغيره ، جعت ياسيدى فذهبت الى صديقى ولم ينتظر أن اطلب .. يبدو ان منظرى وحده كان كافيا ، واصبحت أحد أفراد الكورس أغنى مع غيرى ولايتبين أحد صوتى انما أنا صدى بين الاصداء ظل يختلط بظلال جزء على عشرة

او عشرين أو ثلاثين من انسان ... انسان لايعرف جنسه فهو خليط من رجال ونساء واطفال احيانا . ولكنى لم أعد جائعا وان عدت الى شعورى بعدم الاكتمال لا ياسيدى ان قصتى لم تكتمل . كنت ياسيدى ملزما ان أشترى بدلة سهرة ... كنت ابدو فيها انيقا . فحين كنت اغادر منزلى وانا لابسها تسارع بنات الحارةالى النظر من الشبابيك وكنت احس بالزهو فى داخلى ... زهو سرعان مايزاملنى حين أجد نفسى اكمل الانسان الظل فى الحفل . ولكن فتاة من بين أولئك الفتيات اعجبتنى وخطبتها وتزوجتها وعشنا معا سعداء اول الامر ... لم تكن تعرف معنى اننى كورس ... لم تكن تتصور أننىجزء منظل انسان...حتى جاء التلفزيون فكانت ترانى فيه ...أجل اشتريت جهازافيمن اشترى فلعلك لاتعرف ياسيدى ان مهنتى تدر على ربحا لابأس به ... اترى السيارة التى هناك ... هى قديمة نعم ولكنى املكها ... راتنى زوجتى فى التلفزيون ... رات المهنة التى امتهنها ... سيدى عدت يوما من احدى الحفلات فوجدت زوجتى قد غادرت البيت وحينذهبت اليها احاول ارجاعها .. قالت أريد شخصا موجودا لا ضائعا خافيا لايبين ... أريد انسانا لاجزءا من انسان ... ما حزنت يا سيدى .. لقد تركت أنا فترة الحزن من زمن بعيد .. انما اقص عليك لانى لم أعد اجد حزنا فيماأقص ... لا سيدى انالست سعيدا وانما أنا قانع ... لاتصدق ياسيدى أن السعادة هى القناعة ... وانما القناعة هى الشقاء ... هى ركود ياسيدى ولكنى ارتضيه ... ارتضيه لانى لاأملك له دفعا ولاعنه حولا... ماذا ياسيدى الا تنتظر عبدالمنعم قاصد .. لابد انه قادم الآن ... لابأس ياسيدى ... امرك ... سأخبره بقدومك ... مع السلامة ياسيدى ... مع السلامة ... ياكوشة ... ياكوشة كم تريد .. نعم كازوزة قهوة ... وهذه خمسة قروش لك ياكوشة شكرا ياكوشة .